كلية الاداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم اللغة العربية وآدابها

المستوى : السنة الثانية ليسانس

الشعبة اللغوية

مقياس : المدارس اللسانية

الأستاذة : د/ وفاء صبحي

المحاضرة السادسة :

اللسانيات التداولية

(النشأة والتطور والمفاهيم الأساسية)

بات معروفاً للمشتغلين بحقول التّداولية أنّ رسم الحدود الواضحة لهذا المفهوم المنتشر في قطاعات معرفية شتّى، هو أمر مستعصٍ ومنفلت ، وذلك نتيجة اتّساع مجالها، وتَغَذّيها من مرجعيات متباينة: لسانية وفلسفية وبلاغية... وهذا أدّى إلى صعوبة بلورة مفهوم مُوَحَّد للتّداولية، وكذا صعوبة تصنيفها في مجال معرفي بعينه ممّا أخصب تعريفات عِدّة لمفهوم مضطرب وغير مستقر، سبّبه اتّساع المنظومة المعرفية التي نشأ فيها وانحدر منها، ورغم ذلك، تُجمع جُلُّ تعريفات التّداولية على جعل الخطاب موضوعاً للدّراسة اللّسانية، بعدما تقلّبت ردحاً من الزمن مع دراسة الكلمة ثم الجملة ثم النص، لتستقرّ – في إطار اللّسانيات التداولية – على دراسة مقام الخطاب وقوانين التّخاطب وأحوال المتخاطبين... وغيرها من المباحث الهامّة، التي أولت الأبعاد التواصلية والتّفاعلية أهمّية قصوى في دراسة اللّغة ، باعتبارها كينونة اجتماعية تواصلية ذات طابع خطابي. ولن تبلغ هذه الدراسة – التي تهتم " بلغة الخطاب الإشهاري" – غايتها ، إلاّ بالبحث في الحجاج ووسائل الإقناع وأنواع الاستمالات، التي تُعَدُّ مداخل إقناعية فعّالة يُعوّل عليها المشهر في تبليغ خطابه ، لذا لن أكتفي بالدّراسة اللّسانية التي عاينت – في الفصل الثاني من البحث – بنية الخطاب ووصفت مستوياته المتفاعلة، ولا بالدّراسة السّيميائية التي طاردت دلالات الخطاب في أعمق مستوياتها، بعد أن حَاوَرَت الرّموز وفَعَّلت التأويل واسْتَنْطَقَتْ الأيقونات –كما رأينا في الفصل الثالث – ولن تكتمل ملامح هذا البحث وتتجسّد مقاصده، إلاّ في ضوء رؤية تداولية تستعرض أهمّية التركيز على مفهوم الحجاج في فهم أسرار إنتاج الخطاب الإشهاري وشروط تلقّيه .

ينقسم هذا الفصل إلى مبحثين متكاملين: يُعنى **المبحث الأوّل**، الذي يندرج تحت عنوان : "**مدخل نظري**" بتقديم إطار نظري ودعامة منهجية، تستعرض أبرز مفاهيم التداولية وأشهر أعلامها[1]، وأهم مباحثها: كالسياق وأفعال الكلام.... مع التركيز على مفهوم الحجاج باعتباره المصطلح الأهم في هذا البحث، وشرطا أساسا من شروط نجاح الخطاب الإشهاري ، في حين يرصد **المبحث الثاني** الذي يحمل عنوان "**التحليل التداولي لنماذج**

---

1 بعض أعلام التداولية:

أ. بيرس C.S. Pearce:

بوّأه تصوُّره المتفرّد للعلامة مكانة متميّزة بين جمهور الباحثين في مجال التداولية، فهو يعتقد أنّ كل شيء في الوجود هو علامة دالّة، حتى إنّ الإنسان نفسه علامة، كما "ميّز بين العلامة والرمز والإشارة والأيقونة، وفي هذا الشأن قدّم شروحا وافية في مفهوم الدليل ، حيث يقوم على مبدأ التأويل ، ويتنوّع بحسب علاقته بموضوعه، والأيقونة تطابق الموضوع صوريًّا، والأمارة (المؤشر) تقوم على علاقة العِلّة بالمعلول"[1]، وجميعها مفاهيم تداولية تشرح قوانين ارتباط الدّال بالمدلول بالمرجع بما يُشكّل دليلا لسانيًّا ينفسح عن دلالة يقتضيها المقام، ولا شكّ أنّ منظور "بيرس" للعلامة اللّسانية يناسب – بشكل لافت – تحليل الخطابات التي تنزاح دلالياً ، وتستدعي الاحتكام إلى السياق الذي يتكفّل بإجلاء غموضها، عكس منظور "سوسير" للعلامة اللّسانية، التي يُعرِّفها بالنظر إلى العلاقة التي تربط الدّال فيها بالمدلول فقط، لأنّه "يدرس اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها"، لذا يُقْصِر دراسته على بنية اللّغة، بعد أن يفصلها عن كل مسوِّغات إنتاجها، وبما أنّ جُلّ خطاباتنا تتلوّن دلاليا حسب تلوُّن المقامات، فإنّ ربط البنية اللّسانية بمرجع أو بما تُحيل عليه في واقع الاستعمال هو أمر ضروري وغير مستغن عنه . **أنظر : الجيلالي دلاش ، مدخل إلى السيميائيات التداولية ، تر محمد يحياتن ، ص 09** .

ب. شارل موريس C. W. Morris: اشترك "موريس" مع بيرس في بلورة مفهوم السيميائية، واختلف عنه في تأثُّره الواضح بعلم النفس السلوكي، الذي راح يُفسّر على أساسه السّلوك اللغوي الصّادر عن الإنسان في ضوء ثنائية المثير والاستجابة، "فبالنسبة لموريس، يجب تصوُّر الأدِلّة كسيرورات السلوك، فالجسم من حيث هو جسم يفعل في المحيط وينفعل به، علماً بأنّ وظيفة المحيط وأهمّيته، عاملان حاسمان في إرضاء حاجاته، ومن ثم فإنّ هناك تفاعلات بين هذين العاملين"[1]، كما تُعَدُّ آراؤه في قضايا التداولية، بمثابة اللّبنات التي شُيِّد على أساسها صرح اللّسانيات التداولية – لاحقا – فهو من نسب التداولية سُلاليا إلى السيميائية، بعد أن أضاف مكوّناً ثالثاً (هو المكوّن التداولي) إلى بنية اللغة، التي تتألّف من المكوّن التركيبي والمكوّن الدلالي، حيث "يهدف (موريس) إلى تكوين نظرية عامّة للعلامة، تشمل العلوم الإنسانية والفيزيائية معاً، ويُصِرُّ إلى جانب دراسة اللغة كبينة شكليّة على دراسة علاقة هذه البنية بالموضوعات التداولية وعلاقتها بالأفراد المستخدمين لها" وهذا ما يُفسِّر اعتماد التّداوليين المتأخّرين على آراء موريس الرّائدة في التّنظير لهذا الفرع المعرفي.. **أنظر نعمان بوقرة ، محاضرات في المدارس اللسانية ، منشورات جامعة عنابة ، 2006 ، ص 185** .

ج. أوستين Austin:

=هو واحد من أشهر الذين بحثوا في فلسفة اللّغة، وذاع صيته بين معاصريه بفضل كتابه "كيف ننجز أفعالا بالألفاظ How to do things whth words" ، كما اشتغل على منظومة تقليدية في البحث الفلسفي هي منظومة اللغة والفكر، التي يقول بشأنها: "تتساوى منظومة اللّغة مع منظومة الفكر، ولا أسبقية لإحداهما عن الأخرى، فهدف اللغة ليس تحقيق التواصل فحسب، إنما غرضها التأثير والقدرة على تغيير السّلوك الإنساني" [1]، فاللّغة – بهذا المفهوم – ليست وسيلة للتّخاطب فحسب، بقدر ما هي = = وسيلة تأثير في الآخرين، غير أنّ أهمّ إضافة قدّمها إلى البحث التداولي، كانت مفهوم "أفعال الكلام Les actes de parole"، التي تتعلّق بتلك الأفعال التي تتضمّن قوّة إنجازية، وطوّر "سورل" و "غرايس" هذا المفهوم لاحقاً إلى نظرية متكاملة هي "نظرية أفعال الكلام" التي لاقت رواجاً ومقبولية بين جمهور اللّسانيين في العالم، كما اشترك أوستين مع سورل في بلورة مفاهيم تداولية عِدّة: مثل الحجاج وأنواع الخطاب ودراسة العلاقة بين المتكلم والسّامع، لاعتقادهما بأنّ المعنى لا يُستقصى من البنية اللّسانية وحدها، بل يحتاج إلى رصد تأثيره في المتلقي والاحتكام إلى السياق الذي حصل فيه التخاطب، واشتغل "غرايس Grize" على نظرية المحادثة التي تولي عناية واضحة لسياق التخاطب، "فهو يرى أنّ في وسع الناس متابعة الأهداف الضمنية من خلال تضمينات المحادثة، أي بقولهم شيئا يتضمّن اعتقاداً أو طلباً ما"[2]، كما طوّر نظريّة أفعال الكلام، "وبحث بعمق في نظرية الحجاج الذي يضع في اعتباره السياق وفواعل التواصل ، وميّز بينه وبين الاستدلال الذي لا يضع في اعتباره المقام المحسوس"3... وغيرها من الأطروحات النظرية التي فتحت الباب واسعاً أمام جمهور الباحثين، للخوض في قضايا لسانية تداولية غاية في الأهمّية، تشرح ملابسات العملية التواصلية، وتكشف عن أبعادها التداولية.

- Voir , Austin J.L , Quand dire c'est faire , introduction et commentaire par Gille Lane , Editions du seuil , Paris , 1970 ,p 13

– وأنظر : حسام أحمد فرج ، نظرية النص – رؤية منهجية في بناء النص النثري – ، ص 49 .

– وانظر باتريك شارودو ، الحجاج بين النظرية والأسلوب ، عن كتاب نحو المعنى والمبنى، ترجمة أحمد الوردني ، دار الكتاب الجديد ، بنغازي ، ليبيا 2009 ، ص 7-8

إشهارية من المدوّنة" واقع استثمار مقولة الحجاج في نصوصنا المختارة، للوقوف على أهمية تفعيله في الإشهار، وأودّ أن أشير – في هذا المقام – إلى أنّني اشتغلت على مصطلح الحجاج، وتطرّقت إلى تعالقه المفاهيمي مع مصطلحات أخرى في الفصل الأوّل، الذي عُني بشرح مفاهيم البحث ومصطلحاته الأساسية، غير أنّ حضوره في هذا الفصل هو حضور تطبيقي إجرائي، يهتم ببعده التّداولي، وبتمظهره التطبيقي في الخطاب الإشهاري، كما أوضّح أنّ التحليل التداولي سيقتصِر على بعض الوصلات الإشهارية، التي يبرز فيها الحجاج بشكل جلي يُمكّنني من استقصاء الحجج ودراستها، لأنّ بقيّة الوصلات التي شملها التحليل السيميائي تواري الحجاج، وتُغلّف الحجج بلغة إيحائية متعالية، يصعب معها تحديد تمفصلاته، ودراسة فاعليته في الخطاب.

التحليل التداولي للخطاب: يستدعي تحليل الكثير من الخطابات معرفة بسياق التّخاطب وبأحوال المتخاطبين، وذلك بالاحتكام إلى الإطار النفسي والسوسيو ثقافي الذي احتضنها وشهد تشكُّلها، لذا "يُعنى التداوليون بالاقتراب من الخطاب كموضوع خارجي، أو شيء يفترض وجود فاعل منتج له، وعلاقة حوارية مع مخاطب أو مرسل إليه (...)، وما يهمّنا في التحليل التداولي إنما هو الخطاب وفاعله، الفاعل الذي نعرفه فحسب من خلال خطابه، أي بالكيفية التي يُقدّم بها نفسه"[1]، دون الحاجة إلى تشريح البنية اللسانية والاكتفاء بها، كما فعل البنويون، لأنّ تحقّق تداولية الخطاب مرهون بالإجابة عن الأسئلة التالية: كيف يبني الباثُّ خطابه؟ وكيف يختار الألفاظ والتراكيب التي تجسّد دلالته؟ وما هي المداخل الإقناعية التي تدعم حجاجه وتُبَلّغ رسالته؟ وهل يمتلك المخاطِب والمخاطَب مرجعية لغوية وثقافية متقاربة، تمكّنهما من التّواصل الإيجابي الذي يقوم على معادلة التشفير وإزالة التشفير؟ وما هي الآليات النفسية والعقلية التي يُفعِّلها المتلقي حتى يظفر بمكنون الخطاب؟ ... وغيرها من الاستفهامات الكثيرة التي تهدف إلى الوقوف على مدى تحقّق تداولية الخطاب، فلا تكونُ مقاربةُ الخطابِ تداوليةً إلاّ "بالتركيز على مستعملي اللّغة وسياق(ات) الاستعمال، ومراعاة ظروف استخدام اللّغة الإنسانية كما يُقرّرها سياق المجتمع، وكذا الاهتمام بمظاهر التأويل بحسب السياقات، وتحليل مقامات الخطاب ومقاصده، إضافة إلى دراسة معاني المنطوقات في علاقتها بالمتكلم (...) بعد استحضار الشروط التي تجعل المنطوقات مناسبة وناجحة إنجازيا، ودراسة العلاقة بين أفعال الكلام وسياقاتها غير اللغوية"[2]، وهنا تبرز أهم مفاهيم التداولية وأبرز مقولاتها، كالسياق والمقام والتأويل والقصد والأفعال الكلامية والقوة الإنجازية والحجاج... فجميعها تبني الخطاب وتوجّهه الوجهة المثلى التي تحقّق مقاصد المتكلّمين، وبما أنّ هذا الفصل من البحث يروم

---

1): صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 124 وما بعدها.

2): انظر حافظ إسماعيلي علوي، التداوليات (علم استعمال اللغة)، ص 02 وما بعدها.

مقاربة الخطاب الإشهاري مقاربة تداولية في ضوء مقولة الحجاج، فإنّني سأكتفي بعرض موجز لبعض تلك المفاهيم التداولية التي تخدم هذا التوجّه من الدّراسة، كالأفعال الكلامية والحجاج، الذي سأفرد له مساحة واسعة في هذا المبحث، أتطرّق فيها إلى مفهومه وبعض أعلامه وفاعليته في الخطاب، باعتباره المفهوم الرئيسي الذي يُقاس على أساسه تحقّق تداولية الخطاب الإشهاري، أمّا عن مفاهيم السياق والمقام وأحوال المتخاطبين (المرسل والمرسل إليه) فقد سبقت الإشارة إليها في الفصل الأوّل من هذا البحث.

الأفعال الكلامية Les actes de parole:

إنّ أوّل من طرح مفهوم الفعل الكلامي[1] في ساحة التداول كان "أوستين Austin " وطوّره بعده "سورل Searel "، محوّلاً – بذلك – مسار الدّراسات اللسانية، من الالتفاف حول البنية الداخلية للغة والاكتفاء بها، إلى البحث في علاقة اللغة بمستعمليها، وهي الفكرة الأساس التي ناقشها "أوستين" في كتابه "كيف ننجز الأفعال بالألفاظ"، وتنص نظرية الأفعال الكلامية على ارتباط اللغة بواقع استعمالها في المحيط التواصلي، لأنّ كثيراً من المقامات التواصلية تجعلنا نُصدر أقوالاً وملفوظات، تحثّ مخاطبينا على القيام بأفعال متضمَّنة في تلك الأقوال، كمقامات الوعد والنّهي والشرط والأمر والتحذير... لذلك " تؤكّد نظرية أفعال الكلام أنّ الاستعمال اللغوي ليس إبراز منطوق لغوي فقط، بل إنجاز حدث اجتماعي في آن، فهناك أحداث كثيرة ننجزها من خلال نطق جملة أو نص ما، فمثلاً الفعل الإنجازي الدّال على (الوعد) الموجود في المثال (غداً سأضربك ضرباً مبرّحاً)، إذا أُنجِزَ غداً فإنّ وظيفة الحدث هنا هي (الوعد) فعلاً، أما إذا لم يُنجَز غداً، فإنّ الوظيفة ستتّخذ بُعداً براجماتيا آخر لتكون التهديد أو التحذير"[2]، ومن هنا بدأ يتبلور مفهوم التداولية، حيث ساعدت فكرة أفعال الكلام على خلق مساحة بحث لساني جديد، تتحرّر فيه اللغة من القيود الشّكلية التي كبّلتها بها البنوية ردحاً من الزمن ، لأنّ البحث في تحقّق تداولية الخطاب تقتضي تجاوز البنية اللّسانية المنكفئة على ذاتها[3] إلى ربط الممارسة اللّغوية

---

1): الفعل الكلامي هو كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، وعلاوة على ذلك يُعد نشاطا ماديا نحويا، يتوسل بأفعال قولية (Actes locutoires) ويهدف إلى تحقيق أغراض إنجازية (Actes illocutoires) كالطلب والأمر والوعد والوعيد... وغايات تأثيرية (Actes pergocutoires) تخصّ ردود فعل المتلقي (كالرفض والقبول)، ومن ثم فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلا تأثيريا، أي يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطَب اجتماعيا أو مؤسساتيا ومن ثم إنجاز شيء ما.

- انظر مسعود صحراوي، في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي، مقال في كتاب: التداوليات/ علم استعمال اللغة، إشراف حافظ إسماعيلي علوي، ص 51 إلى ص 53.

2): انظر حسام أحمد فرج، نظرية علم النص (رؤية منهجية في بناء النص النثري)، ص 48.

3): "إنّ كل عبارة متلفَّظ بها، ينبغي ألاّ توصف فقط من وجهة تركيبها الداخلي والمعنى المحدّد لها بل ينبغي أن يُنظَر إليها كذلك من جهة الفعل التام الإنجاز، المؤدي إلى إنتاج تلك العبارة (...) أعني أن يصير تركيبها مناسباً لمقتضى الحال، بالنظر إلى السياق التواصلي"

بالمقام الذي أُنجزت فيه ، لأنّنا – في كثير من المقامات التواصلية – لا ننجز الأقوال من أجل ذاتها، أو من أجل قيمة إخبارية تتضمّنها ، بل ليتحقّق من خلالها فعل إنجازي يُلزم المتلقي باستجابة استلزامية يفرضها الفعل الإنجازي (سلبا أو إيجابا).

وما يزيد في أهمّية الأفعال الكلامية في الحقل التداولي، أنّها تحقّق أغراضاً نفعية كثيرة، تثري الخطاب وتُعيد نسج علاقات راسخة بين أقطابه المتفاعلة ، "فمن المعلوم أنّ للفعل الكلامي وظائف تداولية مرتبطة بقصد المخاطب، من أهمّها وظيفته الحجاجية، التي تزيد من فاعليته الإنجازية، التي أرادها له "أوستين وسورل"، ولا سيما تلك المرتبطة بوظيفتي التأثير والإقناع في بعض مقامات التخاطب"[1]، كما هي الحال في مقام الخطاب الإشهاري، الذي يُعوِّل على القوّة الحجاجية التي تتضمّنها الأفعال الإنجازية في إقناع الزبون المفترض باقتناء السّلعة المروّج لها، لذلك سأحصي – لاحقاً – جملة الأفعال الكلامية ذات الطاقة الإنجازية الموظّفة في نماذجنا الإشهارية المختارة، حتى أقف على مدى كفاءتها الحجاجية، وقدرتها على دفع المخاطَب إلى استجابة إيجابية يقصدها المشهر، لأنّ ما يهمّني في سياق الحديث عن الأفعال الكلامية هي قدرتها على الحجاج والإقناع، باعتباره منطلق الدراسة ومآلها.

1) الحجاج: L'argumentation:

يُعدّ الحجاج سمة الإشهار ووسيلته التسويقية المثلى، لذلك يحرص المشهر على حضوره في خطابه، لأنّه يُدرك كفاءته الإقناعية، وقدرته على الاستمالة والتأثير، "فلا خطاب بدون وظيفة، ولا وظيفة بدون حجاج"[2]، وبما أنّ وظيفة الخطاب الإشهاري هي إقناع الزبون بعرض ما ، فإنّ تحقّق تلك الوظيفة مرهون بممارسة حجاجية رصينة، يدرك القائم عليها أهمية الاشتغال على مداخل شكلية ومعنوية تؤثّر في المتلقي، وتستميله وترضيه حتى تظفر باقتناعه، (فكيف نرصد السّمة الحجاجية للخطاب؟ وما خصائصها؟ وكيف تتبين وتبين الخطاب؟ وكيف نجعل من مفهوم الحجاج وتقنياته وآلياته أدوات إجرائيةً تحليليةً، قادرةً على دراسة أشكال الخطاب وإبراز تحقّقاته الحجاجية)[3] وغيرها من الأسئلة المِلحَّة، التي ترسم ملامح هذا الفصل، وتستقصي واقع حضور الحجاج في الإشهار، من خلال تحليل تداولي حجاجي لنصوص المدوّنة ، يروم الكشف عن تمظهراته الظاهرة والضمنية،

- فان دايك، النص والسياق (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي)، ترجمة: عبد القادر قيني، ص 18 وما بعدها.

1): مسعود صحراوي، في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، مقال في كتاب: التداوليات / علم استعمال اللغة، ص 59.

2): محمد طروس، النظرية الحجاجية (من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية)، ص 05.

3): انظر المرجع نفسه ، ص 05.

وذلك برصد الحجج التي يوظّفها في كلّ مرّة حتى يُقنع مخاطبه بالعرض التجاري، فالحجاج نشاط لغوي منظّم يهدف إلى الإقناع وتتجلّى فاعليّته في امتلاك القدرة على التأثير في الآخر، لأنّه يعني "الدخول في علاقة استدلالية تخاطبية مع الغير، على مقتضى الادّعاء والاعتراض، حيث يتحدّد الخطاب الحجاجي بوصفه خطاباً استدلاليا موجّهاً لإقناع الغير، بصواب أو بطلان دعوى أو أطروحة ما"[1]، وتجسّده مقامات التواصل اليومية، التي تتم بلغة مألوفة طبيعية، فمن غير التّداولي أن نمارس حجاجاً بلغة إيحائية متعالية تنأى عن اللغة التي يتواصل بها الناس في حواراتهم العادية، لذلك نلمح في الخطاب الإشهاري سمة البساطة والوضوح والتجلّي، حتى يتسنّى لجمهور واسع من المتلقين فهمه وتداوله، وغالباً ما نلمح في الحجج التي يوظّفها المشهر وضوحاً ومباشرة، لأنّ وظيفتها الإقناع، وبما أنّه يهدف إلى استقطاب أكبر شريحة ممكنة من جمهور المتلقين، فإنّه يجتهد في بناء حجاجه بناءً مُحْكَماً، يُحقّق لخطابه المصداقية والمقبولية، وهذا ما سيبحث فيه القسم الثاني من هذا الفصل، الذي سيختص بتطبيق مقولات التحليل الحجاجي على عينة من نصوص المدوّنة المختارة، حيث يمكن رصد الحجج ووصفها وتصنيفها، ثم تحليلها للوقوف على فاعليتها في الوصلة الإشهارية.

التوجّهات المعرفية للنظرية الحجاجية:

رغم أنّنا نألف الحجاج ونُجيد توظيفه في ممارساتنا التواصلية اليومية، فإنّ محاولة ضبطه ووصف آليات اشتغاله تظلّ مستعصية ومنفلتة، وتحتاج إلى حنكة معرفية، ورصيد علمي تأصيلي، يُلمّ بظروف نشأته، ويرصد أصوله الإبستيمولوجية المتداخلة، فمن الصّعب نسبته إلى فرع معرفي بعينه، باعتباره تقنية لغوية خطابية يُبنى على أساسها أيّ خطاب يسعى إلى التأثير والإقناع ، عبر ممارسة حجاجية تستقي أدواتها الإجرائية من الفرع المعرفي الذي يُوظّفها ، ورغم ذلك فقد ركّز الباحثون في هذا المجال على ثلاثة حقول معرفية رئيسية، عُنيت بتعريف الحجاج ورصد أنواعه، ورسم مسار اشتغاله، هي البلاغة والمنطق واللّسانيات، ورغم اختلاف منطلقاتها الفكرية، وأُطرها الفلسفية وأدواتها التحليلية، فإنها تجتمع حول دراسة الحجاج ووصف دوره في بناء الخطاب الحجاجي وفي تلقّيه.

1: التوجّه البلاغي:

1): شوقي المصطفى، المجاز والحجاج في درس الفلسفة (بين الكلمة والصورة)، ط 1، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، 2003، ص 39.

تُعنى المقاربة البلاغية للخطاب بدراسة مجموع الآليات الخطابية الموجهة لإقناع المتلقي والتأثير في مواقفه وقناعاته ، كما ترصد وظائف الخطاب وأغراضه التواصلية ، ويُعدُّ الحجاج من أبرز المباحث البلاغية التي شغلت جمهورا واسعا من البلاغيين القدامى والمحدثين ، لتعلُّقه بآليات استمالة جمهور المتلقين والظفر باقتناعهم ودفعهم إلى إبداء استجابة مُرضية للجهة التي تمارس الحجاج ،كما تبحث النظرية الحجاجية في الأبعاد التداولية للخطاب ، وكذا في التقنيات اللسانية والخطابية التي تجعل الخطاب ممكنا ، والجدير بالذكر أن البحث في الحجاج قديم قدم الدرس اللغوي نفسه ، فبعدما تفطن الدارسون الأوائل إلى غلبة السمة الحجاجية على جل الخطابات المتعددة ، عكفوا على دراسة الحجاج ضمن قضايا النظريات التواصلية ومحاور وعلم الكلام ، إذ "يوجد تقليد فلسفي ولساني عريق يتيح القول بوجود تاريخ للحجاج، فمنذ القديم جعل اليونان من الحجاج موضوعهم الأثير، وقد أَحَلُّوه مَحَلاً رفيعاً، وهذه الآلة العجيبة التي تُغري وتُقنع في آن هي (فن الكلام)"[1] ، وتلك بوادر تشكّل النظرية الحجاجية، التي بلورتها آراء فلسفية قديمة، تتصدّرها أطروحات السوفسطائيين وأرسطو وأفلاطون...، الذين بحثوا في ضروب التّبليغ والتّلقي والاحتجاج، وتلك مصطلحات تأسيسية في الدّرس البلاغي القديم والمعاصر ، "فأثينا هي موطن النظرية الحجاجية، التي أقام صرحها أرسطو في كتابه (الخطابة) الذي تناول فيه كل مباحث الحجاج، إضافة إلى إنجاز السوفسطائيين الذين كانوا في الأصل معلمي الخطابة أي البلاغة الإقناعية"[2]، وإذا أردنا أن نرصد تاريخ الحجاج، علينا أن نراجع آراء أرسطو في هذا المبحث الدّقيق من اللّغة، فهو يميّز بين نوعين من الحجاج، حجاج يساوي الإقناع وذلك من زاوية نظر البلاغة، وحجاج لا يعدو كونه طريقة في التفكير، إذا تعلّق الأمر برؤية جدلية حوارية، وذلك تمهيداً للتّمييز – لاحقاً – بين الحجاج والبرهان، كما خاض في العلاقة بين الجدل والخطابة ، "فإذا كان الجدل هو محاولة الإقناع، فإنّ الخطابة هي الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان، وفي هذا بالضبط يبدو الجدل مرتبطاً بالخطابة"[3]، وتمخّض عن هذه المناقشات العميقة، تمييز أرسطو بين ثلاثة مستويات حجاجية هي " (الإيتوس والباتوس واللّوغوس) في علاقتها بالأبعاد الثلاثة للفعل الخطابي (الخطيب والمستمع والخطاب)"[4]، وهي مرتكزات المقاربة البلاغية، التي تنظر إلى الحجاج كعنصر من عناصر الخطاب، يخضع لشروط تشكّله واشتغاله، ومن هنا نَحَت الدّراسات البلاغية التقليدية بالحجاج منحىً

---

1): باتريك شارودو، الحجاج بين النظرية والأسلوب (عن كتاب نحو المعنى والمبنى)، ترجمة: أحمد الوردني، ص 07.

2): محمد الولي، مدخل إلى الحجاج (أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان)، مجلة عالم الفكر، ع 2، المجلد 40، ص 20.

3): المرجع نفسه، ص 25.

4): محمد طروس، النظرية الحجاجية (من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ص 18.

تصنيفياً، يعمل على رصد الحجج الموظّفة في الخطاب وإحصائها وتصنيفها، دون الاهتمام بأُطُرها النصّية وجوانبها السياقيّة ، ممّا أوقعها في فخّ المعيارية الصارمة، وجَرَّ عليها نقداً لاذعاً، يرى أصحابه أنّها "كانت تؤسّس لشكل خطابي معياري، وترسم الخطوط الواجب على الخطيب اتّباعها بعيداً عن أيّ وصف أو تفسير للممارسة الخطابية الفعليّة، إنّها تُقعِّد لما ينبغي أن يكون وتتجاهل الكائن والمحتمل، بصورة يصبح معها الخطاب جاهزاً ومتعالياً، ويصبح الحجاج ركاماً من الحجج والطرق الاستدلالية (...) وهذا لا يمكّنها من وصف التّفاعلات الخطابية، وتفسير آلياتها وطرق اشتغالها"[1]، ممّا أدّى إلى التفكير الجاد بشأن تطوير الرؤية البلاغية القديمة للحجاج

وذلك في إطار ما يصطلح عليه بالبلاغة الجديدة "La nouvelle Rhétorique" التي يتزعّمها "شايم بيرلمان وتيتيكاه".

البلاغة الجديدة مع بيرلمان "Perlman":

سعى "شايم بيرلمان" في كتابه "مصنّف في الحجاج: البلاغة الجديدة" إلى اقتراح رؤية تجديدية تراجع منظور أرسطو للحجاج ، حيث اشتغل في إطار "البلاغة الجديدة"[2] على توسيع مجال البلاغة الأرسطية، التي كانت تنظر إلى الحجاج نظرة تصنيفية، وتعدّه تقنية خطابية مقصورة على خطابات بعينها، غير أن "بيرلمان" يعتقد أنّ البلاغة تَعني حسن التبليغ، الذي لن يتحقّق إلاّ عبر آلة خطابية مرنة، هدفها الإقناع وتملك وظيفة تأثيرية، هي الحجاج، ليفتح بذلك "أمام الحجاج آفاقاً جديدة، ويحاول أن يُخرجه من الدّائرة الضيّقة التي حصرته فيها الدّراسات القديمة، كأداة صرفة توظّف في المجالات العقلية أو التجريبية، إلى عالم الاحتمالات، عالم الآراء والقيم والتفاعلات بين الأفراد والجماعات، مُحَوِّلاً – بذلك – أدواته العقلية واستنباطاته التطبيقية والتجريبية من حجج

---

1): المرجع نفسه، ص 42.

2): أخذت بحوث البلاغة الجديدة تنمو منذ نهاية عقد الخمسينات حتى الآن، عبر ثلاثة آفاق متجاورة ومتتالية، وإن كانت متباينة في أهدافها وبرامجها، هي:

- **الاتجاه الأوّل**: مع "بيرلمان" من خلال كتابه "مصنّف في الحجاج: البلاغة الجديدة".
- **الاتجاه الثاني**: تمثّله البلاغة الجديدة التي وُلدت في أحضان البنوية، ويمثّلها البلاغيون الجدد، أمثال: جيرار جينيت وجان كوهن وتودوروف.
- **الاتجاه الثالث**: أتى بمنهج وظيفي مجاوز للاتجاه البنوي، ومعتمد على التداولية والسيميائيات.

– انظر رضوان الرقبي، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، مجلة عالم الفكر، العدد 02، المجلّد 40، "الحجاج"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أكتوبر – ديسمبر 2011، ص 67.

متراكمة إلى نظرية للخطاب"[1]، كما اجتهد "بيرلمان" في إخراج الحجاج من متاهات التّصنيف والتّبسيط، التي تُقصر دراسته على إحصاء الحجج الموظّفة في الخطاب، وترتيبها وتصنيفها، لاعتقاده بأن لا جدوى من دراسة الحجّة وهي معزولة عن سياقاتها النصّية وتأثيراتها البلاغية، لأنّ فاعليّتها في الخطاب متعلّقة بأدوارها الحجاجية ويقيمتها الإقناعية، كما أنّ فاعليّتها لا تتجلّى في الخطابات العقليّة والتجريبية فحسب، بل تمتد لتشمل جميع الخطابات التي تنتجها مقامات التواصل اليومي ، لذلك "يقرّر بيرلمان حضور الحجاج في جميع الخطابات الاجتماعية والسياسية والقانونية والإشهارية، وفي جميع المناقشات العامّة، أي إنّه يُغَطّي كلّ مجال الخطاب الذي يهدف إلى الإفهام والإقناع"[2]، مع حرصه على الفصل بين البرهان اليقيني، الذي تقتضيه الخطابات العقلية والعلمية، وبين الحجاج الاحتمالي الذي يوظّف بعفوية أوبقصدية في مقامات التحاور والنِّقاش الودِّي، ورغم كُلّ ذلك؛ تظل آراء "بيرلمان" نظرية وعامّة ووفيّة لآراء البلاغة التقليدية، لأنه اشتغل بجدّ على مناقشة أطروحات أرسطو وأفلاطون... وأسّس لنظريّة حجاجيّة حديثة، في إطار البلاغة الجديدة، لكنّه لم يُطبّق مقولاتها النظرية على واقع الممارسة التواصلية، وتلك طبيعة البحث الفلسفي الذي يفكّر في الكُلّيات ولا يُلقي بالاً إلى التطبيق الإجرائي.

2: التوجّه المنطـقي:

يُعَرَّف المنطق بأنه علم صوري، يبحث في وصف العلاقات بين الأشياء وما تؤدّيه من وظيفة، وبين العلم ككيان معنوي وما يتمخّض عنه من نتائج ملموسة، باعتباره يهتم بقوانين الفكر، وبالعمليات الذهنية التي تقنّن تفكيرنا وتنظّم ما ننجزه من أقوال وأفعال، حيث يعمل المنطقي (المشتغل بالمنطق) على صياغة قواعد ضابطة للتفكير، تشرح طبيعة العلاقات المنطقية التي تربط الفكر بالواقع، لذلك عُدّ المنطق واحداً من أهمّ الفروع المعرفية التي اهتمّت بالحجاج، باعتباره عمليّة عقليّة منظّمة، تنجرّ عنها ممارسة لغويّة منطقيّة، تُفضي إلى إقناع السّامع بقضيّة ما. حيث يبحث المناطقة في الطريقة التي يُبنى على أساسها الخطاب الحجاجي، وذلك برصد منهجيّة عرض الحجج وترتيبها وفق نسق منطقي مدروس يحقّق تداوليّتها ، غير أنّ الدرس المنطقيّ كثيرا ما يوصف بالتجريد وبالإغراق في التفسيرات الفلسفية البعيدة عن واقع الممارسة اللغوية الفعلية، وهذا ما أدّى إلى ارتفاع أصوات المطالبين بتجديد المنطق، أو باقتراح رؤية عملية تحرّر الدّرس المنطقي من قيود الفلسفة العقلية، (ما أدّى إلى تبلور

---

[1]): انظر محمد طروس، النظرية الحجاجية (من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية)، ص 44.

2): رضوان الرقبي، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، مجلة عالم الفكر، ع 02، المجلّد 40، "الحجاج"، ص 83.

فكرة (المنطق العملي) التي ترفض إقصاء الممارسة التطبيقية للمنطق، وتدعو إلى عدم الاكتفاء بالمفاهيم النظرية والعلاقات التجريدية، وهو طرح تجديدي دعا إليه ثُلّة من المناطقة الجدد أمثال: "تولين S. Toulmin" و "غرايس J. B. Grize" و "فينيو G. Vignaux"... الذين بحثوا بعمق في موضوع الحجاج من زاوية منطقية، حيث حدّد (تولين) في كتابه "The uses of argument" مفهوم الحجاج، ووصف أركانه المتفاعلة وهي المصَرّح به والنتيجة والضمان، غير أنّه أهمل بعض العناصر التداولية الهامّة، التي تؤطّر العملية التواصلية وتشرح أبعادها، كالسياق والمتلقي، وكأنّه بقي وفيّاً لأطروحات الدّرس المنطقي القديم، الذي يبحث فقط في القُدُرات العقلية التي تبني الحجاج وتُفعّله.

ويخوض "غرايس" صاحب كتاب "من المنطق إلى الحجاج" في قضايا الحجاج والبرهان والمنطق الرياضي، ويرفض أن يؤسِّس دراسته للحجاج على فكرة التمييز بين الحجاج والبرهان، لأنه يعتقد أنّ المنطق يتجه في تحليله إلى البرهنة، في حين أنّ الحجاج فعل خطابي يجب أن نتخلّى أثناء معالجته عن المنطق الرياضي.

ويبدو أنّ "جورج فينيو" هو أكثر المناطقة الجدد توفيقاً في صياغة منظور عملي جديد للمنطق، بعدما قذف به إلى ساحة التداول والممارسة التواصلية الفعليّة، حيث ناقش في كتابه "الحجاج: محاولة في منطق الخطاب" "فكرة أنّ الحجاج آلية اجتماعية منظّمة لتفاعل العلامات بين الأشخاص، شرح فيها مفهوم الحضور وهو مفهوم تداولي مهم، يجعله "فيينو" أساس بناء الخطاب الإشهاري)[1].

والواضح من كل ما سبق أنّ "المقاربة المنطقية قد حاولت أن تُعيد الاعتبار للحجاج في مقابل البرهنة، وأن تبني منطقا حجاجيا طبيعيًّا يختلف عن المنطق الصّوري الرياضي، وعن البلاغة التقليدية، غير أنّها اشتغلت ببناء هذا المنطق وبرسم حدوده وآليات اشتغاله، أكثر ممّا اهتمّت بالخطاب الحجاجي ذاته، مما جعلها تفتقر نسبيًّا إلى الوظيفة الإجرائية التحليلية"[2]، وتفسير ذلك أنّ الباحث السّاعي إلى التجديد، يبقى دائما وفيًّا لأصوله المعرفية التي شكّلت مرجعيّته العلمية وعقيدته التحليلية، وكثيراً ما تنفلت منه وتباغته أثناء البحث والمناقشة وتلك — في اعتقادي — ظاهرة صحّية، تربط الفروع بأصولها، وتمنح الباحث دعامة نظرية تُعزّز أفكاره، وتثبت انتماءه إلى فرع معرفي أصيل.

---

1): تمّت صياغة أفكار هذه الجزئية بالاعتماد على مراجع عِدّة، هي:

- Encyclopédie « Encarta, ed 2004 (CD), rubrique : L'étude logique de l'argumentation ».
- http//Fr. Wikipedia.org, rubrique : Toulmin, Grize et Vignaux.
- محمد طروس، النظرية الحجاجية (من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية)، ص من 57 إلى 90.

2): المرجع نفسه ، ص 93.

3: التوجُّه اللّساني:

جاء هذا التوجّه العلمي في دراسة الحجاج كرد فعل على الدّراسات العقلية المغرقة في التّجريد، حيث يسعى روّاده إلى اقتراح رؤية لسانية علمية تدرس الحجاج في ضوء العينات اللغوية المنجزة فعلا، وفقا لمبدأ "المدوّنة" الذي أقرّه البنويون، وجعلوه موضوع الدّراسة اللّسانية الوصفية، التي تقوم على وصف ما تمّ إنجازه من ملفوظات، بعد تشريحها إلى مستوياتها المتفاعلة.

"إنّ أشهر من درس الحجاج في ضوء المقاربة اللسانية (أوزفالد ديكرو O. Ducrot و أسنكومبر Onscimber)، ولهما في ذلك مؤلّفات عِدّة أهمّها: (L'argumentation dans la langue)

و(Les échelles argumentatives) و (Le dire et le dit)...."[1]، التي ناقشوا فيها أطروحات لسانية رائدة أثرت المجال التداولي بنظريات هامّة، مثل نظرية السّلالم الحجاجية، التي تُقِرُّ بوجود علاقة تراتبية بين الحجج في السّياق التواصلي، تجعلها خاضعة لمبدأ التدرُّج الذي يتحقّق جرّاء (التلازم بين الحجّة وما تُفضي إليه من نتيجة، فكلا الحجتين **ب** و **ب*** مثلاً تنتميان إلى الفئة الحجاجية نفسها، وبالتالي إلى السّلم الحجاجي ذاته كما أنهما تدعمان النتيجة عينها، غير أنّ الحجّة ب والحجّة **ب*** مختلفتان من حيث القوّة الحجاجية، فالقول

" **ب** " أقوى في سلّم الحجج من القول " **ب***"، وعليه فالسّلم الحجاجي هو فئة حجاجية موجّهة، ترتب الحجج من الأضعف تأثيراً إلى أكثرها قدرة على الإقناع)[2]، فالحجاج هو علاقة دلالية تربط بين الأقوال في الخطاب، وتحكمها قيود لغوية تجعل المتكلم ينتقل من الحجّة **ب*** إلى الحجّة **ب** ضمن مسار حجاجي محكم، يكفل له تحقيق النتيجة المقصودة، وهذا يجعلنا نستنتج أنّ المقاربة اللّسانية للخطاب الحجاجي تسعى إلى دراسة الأقوال دراسة تداولية، تبحث في وظيفتها الحجاجية، وتقدّم وصفاً دلاليًا للخطاب المنجز، وهذا ما اصطلح عليه (ديكرو وأنسكومبر) "بالتداوليات المدمجة pragmatique integrée"، وهو مفهوم لساني جديد، يتأسّس على منظور شارل موريس، الذي يُقرُّ بتآلف المكوّن التركيبي والمكوّن الدّلالي مع المكوّن التداولي أثناء دراسة البعد التواصلي للغة، وعليه فالتداوليات المدمجة هي مُحصّلة اتحاد الدّلالة بالتداول، بمعنى إدماج الوقائع التداولية في صلب الدّراسة اللسانية، وذلك يجعلها تهتم برصد الدّلالة التي تنتجها البنية اللسانية أثناء تحقّقها الفعلي في واقع العملية التواصلية دون أن تعزلها عن سياق اشتغالها، كما فعلت اللسانيات الوصفية التي فصلت البنية اللسانية عن كل مسوّغات إنتاجها، واكتفت بدراسة مستوياتها الداخلية، وعليه فإنّ التداولية المدمجة هي (نظرية دلالية

---

1): Voir : http//F.r.Wikipedia : rubrique « La pragmatique integrée »

2):Voir: Jaques Moechler et Anne Rebou, Les aspects de l'énonciation de pragmatique, ed du Seuil, 1994, P 281.

تدمج مقامات التلفظ ومظاهره ضمن النظام اللساني "أي اللسان عند سوسير"، وذلك بغرض التوصّل إلى فهم الطريقة التي تؤوّل بها تلك الأقوال المنجزة في سياقات مخصوصة توظّف فيها)[1].

اشتغل (ديكرو وأنسكومبر) كذلك على مفهوم "الموضع" في الحجاجيات اللّسانية، فهما يعتقدان أنّ "جريان كل خطاب يكون دائما محكوما بمجموعة من المبادئ العامّة، هي التي يُصطلح عليها بالمواضع أو الأمكنة المشتركة، وهذه المبادئ تؤدّي دور المسوّغ والمعلّل للنّقلة التي تتم من المقدّمات إلى النتائج"[2]، وذلك يسمح بفهم منطق ارتباط الحجج ببعضها من جهة، وبالنتيجة التي تُفضي إليها من جهة ثانية في السياق الحجاجي لأنّ وظيفة الموضع تتمثّل في "تحقيق التأليفات الخطابية، فالترابط الحجاجي بين الملفوظات إنما يتمّ على قاعدة لمواضع وليس استناداً إلى طبيعة الوقائع"[3].

فإذا كان بالإمكان الانتقال من الملفوظ الأوّل (الحجج) إلى الملفوظ الثاني (النتيجة) ، فإنّ ذلك يتم عبر الموضع الذي يسمح بتحقيق النقلة الحجاجية الصحيحة، التي تشي بوجود ارتباط ضمني بين هذين الملفوظين، وعليه "فإنّ هذا الموضع هو الذي يمنح النّقلة التي تمّت من الشّطر الأوّل إلى الشّطر الثاني قوّتها ومشروعيّتها، فهو يُشكّل القاعدة التي يرسو عليها المسار الحجاجي الوارد في هذا الملفوظ، وهكذا ستصير المواضع بمنزلة القاعدة الأولية للحجاج ، بحيث سيغدو الحجاج مرتبطاً باشتغال المواضع المحايثة للبنية الداخلية للغة"[4] ، وغيرها من المفاهيم الدّقيقة التي أثرت مجال اللّسانيات التداولية بشروحات وافية توضّح مقام الحجاج في العملية التواصلية.

---

1): Voir: Jaques Moechler et Anne Rebou, Les aspects de l’énonciation de pragmatique, P79.

2): رشيد الراضي، مفهوم الموضع في الحجاجيات اللسانية لأنسكومبر وديكرو، مجلة عالم الفكر، ع 02، المجلد 40، الحجاج، ص 198.

3): المرجع السابق ، ص 200.

4): المرجع نفسه ، ص 200 .